المقصدية والبلاغة
مسالك في التداول والحجاج

نهار محمد
جامعة ابن خلدون- تيارت

يشتغل عالم اللغة على حقول دلالية متعددة، حتى وهو يستأنس بتخصص معين، لأن اهتمامه بإحداها هو في حقيقة الأمر، اهتمام قياسي مقامي يجمعه بباقي الحقول الأخرى، بمعنى أن طبيعة العلاقة بين علم اللغة وحقول أخرى، هو بمثابة علاقة مفاهيم باستدلالاتها، أي مفاهيم هذه الحقول، وهكذا فان معرفة علم كالنحو مثلا متمكن بحصول ملكة مكتسبة، من حقول متعددة ذات صلة، ولهذا فهو يتحقق (النحو) بتحصيل قدر معلوم من المعرفة، (كالصرف والأصوات وغيرها) ، ولهذا يجد المنشغل بعلم اللغة نفسه متواطئا لتحصيل وتحقيق هذا العلم، وفق مقتضى مفاهيم هذه الحقول، وللسائل أن يتساءل أي مسافة مقامية تجعل دارس اليوم، يقف من خلالها امام علوم كثيرة مستحدثة، تعتبر نفسها في صلة بعلوم سابقة عنها، صلة تعتبرها تأصيلية، ومن جهة تعتبر نفسها في قطيعة معها، كالصلة التي نحن بصددها التي تجمع بين البلاغة والحجاج، فمن جهة يعتبر هذا الأخير محصلة لها لأنه نتج من خلالها، ومن جهة يعتبر نفسه في قطيعة معها أو على أنه بديل عنها.

الحافز الوظيفي وسلطة الحجاج:

ظهور البلاغة كان بدواع حجاجية بالدرجة الأولى، أي حاجة البلاغ أو الرسالة إلى بيان وتبيين، أو آلة يترتب عنها استدلال طبيعة هذا البلاغ، فمن الشعر بدأت بوادر الاستدلال على البلاغ والإبلاغ والتبليغ وإدراك الشاعر مبكرا هذا التوظيف الموازي لنص قصيدة فاحلة، هو ما انتح وما أصبحت عليه المعلقات والحوليات، وبظهور الوحي الكريم تأسس حقل استدلالي جديد، وحجاج تداولي نازع اللغة مكانتها الأولى، لتسلم له بسلطانه وبحجيته، وتنشأ البلاغة لتحتضن هذا الدفق البياني وتفتح ساحتها على مفاهيم ذوقية وبيانية ولغوية وعقلية .. وهي حقول سادها اعتقاد ببيان واحد ونتيجة واحدة، هو سلطان اللغة وسلطة حجاج، يستدل بها كل حقل على مداركه.

لقد استأثر البلاغة عهد جديد، حينما تفاعلت مبكرا مع استدلالات بلاغات الأمم الأخرى، وكان الرهان على دفع الشبهة بالحجة، ومعرفة النهج والجهة التي ينافح بها الخطاب على ما يشاكله. لقد اجتمعت الحكمة والشريعة، ليكون فصل الخطاب ويصنع ما أبهر وتفرد تلك، هي مواطن الحجاج التي شغلت "ابن رشد والبطليموسي وابن باجة وابن طفيل، فلاسفة المغرب والكندي والفارابي والسجستاني وابن مسكويه وابن سينا من المشرق[1].

والمعلوم أن تداولا جديدا أصبح يحيط البلاغة، بمفهومات أو تداولات على حساب تداولات أخرى حسب الاقتضاء والمآل، ولهذا انعكست تلك الأجواء على الحجاج، بين أراء متعددة ومفاهيم منقسمة، بين الشريعة والحكمة بين المنطق والأخلاق، في ثقافات مختلفة[2].

يمثل الحجاج استدلالا وظيفيا هاما، ودفعا بالمنظور الدلالي للغة إلى استحداث منظومة التفاعلات، التي من شأنها أن تخدم الغرض أو المقصد، باعتبارهما الجهة المستدل بها على الدلالة، ولأن المقصد أو الغرض، يحيلان على المواضعة والقياس يعرّف الحجاج على أنه "من الحجة وجمعها حجج وحجاج وتعني البرهان، ودفع ما به، احتج

الخصم وقيل الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ..وحاجه محاججة وحججا: نازعه الحجة... الرجل الحجاج هو الرجل الجدل وحج معناه القصد [3] وتولد القصدية إجمالا من علة أو نقص في توزيع التوترات ...ويمكن للقصد الإرادي أن يتنوع بفعل الضوء الذي تلقيه أصناف نقص الإدراك المختلفة [4].

وقد ورد اصطلاحا في بعض مفاهيم البلاغة، يقول ابن المقفع "البلاغة اسم جامع لمعني تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الإحتجاج فإذا أعطيت لكل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحسد والعدو.." وعلى هذا يفهم أن علاقة البلاغة بالحجاج في كونه تخريج واقع على الجهة المحتج بها عنها، وعلى أن الأخير طريق من طرق الاستدلال الذي تحتج به البلاغة على مدلولاتها، يقول التهانوي "والحجة الإلزامية هي المركّبة من المقدمات المسلمة عند الخصم وإسكاته، وهي شائعة في الكتب والقول بعدم إفادتها الإلزام، لعدم صدقها من نفس الأمر، قول بلا دليل لا يعبأ به أما مرد الحجاج القائم على سمت الأساليب في الألفاظ والمعاني، فقد كان للدرس البلاغي جوانب أساسية هامة فيه، بل كانت بواكيره الأولى حين نشأت مدرسة اللفظ وبناء قواعد دلالية، كقولهم عن الاستدلال بالسياق: جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق[5].

والسياق يعني الدلالة من جهة المعنى، تقتضيه تداولات وتوازنات، بين مستويات الاستدلال: مستوى وظيفي يتحقق بمحددات الإختيار والتركيب، ومستوى دلالي ينشأ عنه المعنى، انطلاقا من فعاليات المستوى الأول ثم المستوى التداولي أي الخطاب أو الوجهة أو القصد، المراد به في هذا المعنى، والتعامل أو الانجاز هو الذي سيحدّد وجهة هذه المستويات، اتجاه نص معين وفي البلاغة نجد شيئا من هذا القبيل، بتفاعل هذه المستويات أو تفاوت جانب منها على الأخر، ففي نظرية النظم ما يعزز تفاوت هذه المستويات، بين اختلاف الأراء حول غلبة أحداها على الأخر، خصوصا ما أضفاه شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني عليها من تفاصيل ومفاهيم، كتجنيسه لعلومها واستحداثه مفهومها: معاني النحو وتوخيه دلاليا وتداوليا، والمزية إنما تكون بين لمسات البيان وتحقيق المنطق، وهو ما اتضح جليا مع تطبيقات السكاكي وتصنيفاته وتغليبه المنطقي، ومن هنا اقترنت البلاغة بطرح ومفهوم جديد وهو الخطاب الحجاجي[6].

الاستدلال ورهانية الحجاج:

إن تحول البلاغة بين مفاهيم مختلفة، هو الذي اكسب الحجاج فعالية، فالثقافة الواسعة (الموسوعة) جعلت من البلاغي ينافح بملكاته هذه، عن اجتهاده ومنظوره الدلالي، وهذا كله يعود إلى مقتضيات الاستعمال أو الإنجاز، الذي بدأ يعطي ثماره ،هذا ما شهدته المرحلة المتأخرة للبلاغة، عندما أصبحت المنطلقات والأصول والمقدمات منطقية أو بالأحرى معيارية، ثم نشهد مرحلة أخرى، وهي عقد أو حوارية بين هذين المفهومين: الدلالي البياني والدلالي المنطقي، في ضوء الممارسات الجديدة، كالتداول بين أن ينظر إلى البلاغة بنظرة جمالية خيالية وبين النظر إليها في إطار مفهوم الشعرية[7].

من هنا يتأثث بيت البلاغة باستدلال وتداول جديد ،تتحقق معه قيم وتفاعلات جديدة، بمقتضى داخلي ينطلق من كليات أو أصول، وخارجي يتفاعل والمحفزات "الحقل البياني وهو فن بلاغي يستهدف توطيد الأفكار والتعابير الأدبية، ويعمل كتراث ثقافي تتناقله أجيال متلاحقة، ويفترض التعديل بالنقص أو التعديل بالزيادة المشروعة".

ومن هنا أيضا انطلقت البلاغة في نشأتها الأولى، وهي تسعى أن تحتوي كل المفاهيم، وأن يكون المسعى في إبانتها على الجهة الدلالية المقصودة من قبلها، أي المزية في الاستعمال والتداول، وهي مصطلحات أو مفاهيم تمثل معجم البلاغيين، يقول عبد القاهر مفتتحا مؤلفه أسرار البلاغة "الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد

النبي وآله أجمعين اعلم أن **الكلام** هو الذي يعطي العلوم منازلها ويبين مراتبها ويكشف عن ضوءها ويجني صنوف ثمرها ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها..[8].

فالكلام عند الجرجاني هو الإبانة، وهو اللمسة على البيان، فيه يجري اتساع المعاني وبالاستعمال والممارسة، على سبيل عتبات الكلام التي يقترحها، تنجز الأغراض والمقاصد بتدرج فمن الملكة إلى الاختيار أو العمل النفسي كما يصف ذلك" وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم برهان المعنى، الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم –أعني الاختصاص في الترتيب– يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة، في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل، ولن يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير وتخصيص في ترتيب وتنزيل[9]. ويدلي الزمخشري بدلوه في هذا الشأن ويفصّل في أطروحات الشيخ" إن أسس التربية الفنية التي تهدّى إليها عبد القاهر الجرجاني، قد أثمرت ثمرتها عند الزمخشري، فهو منذ مطلع تفسيره ينّبه إليها، ويشير بل يجعلها عمدة تفسيره الذي يفسر، فالفقيه عنده والمتكلم ثم القصصي أو الإخباري والواعظ والنحوي واللغوي، هؤلاء جميعا لن ينهضوا لتفسير القرآن، وإنما الذي ينهض له من أخذ خطه من علمين مختصين بالقرآن يكشفان عن جمال معانيه ومزيتها وهما علما: المعاني والبيان[10].

فحق للبلاغة أن تحتضن الذوق والحجاج كما يكرس القرطاجني ذوقا حجاجيا من نوع آخر، وهو يطرح قضية التخييل وهو الذي لم تغب عنه ثقافة المنطق لقد "وحد بين البلاغة الأدبية والبلاغة الحجاجية على أساس اندماج التأثير بين الجمالي والفعلي، فلأن النص الأدبي القديم، لم يعرف هذا الفصل كما أن البلاغة العربية، التي اهتمت أساسا بالأسلوب أو بالصور البلاغية، التي ترجمت حضور البعد الجمالي في البلاغة، لم تكن تعرف هذا الفصل بين الأسلوب والحجاج، بقدر ما كانت تنطلق من مبدأ التلازم بينها[11].

البلاغة والقصدية:

اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتللك العبارة فعل لساني فلا بد ان تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل امة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك احسن الملكات واوضحها ابانة عن المقاصد[12] لكن هذه الاحالة لا تعني لزوما وجود تطابق دائم بينهما – –– ومن ثمة نقول ان المشكلات التي تخص المصطلح هي مشكلات لسانية اساسا مرتبطة بالتداول اللغوي والترجمة والتكرار والتوسع والاستعارة كما ان المشكلات التي تترتب على حضور المفهوم هي مشكلات ابستمولوجية وترتبط بعلاقتنا بالفكر وبالعالم [13] وتمثل الانساق – – –

ان تفاعل المصطلح تجليا ومفهوميا يجعل منه قوة واصفة حتى وهو يستعير من المفهوم مفاهيم ابستمولوحية مختلفة – ليعطيها مجالا ووضيفة جديدة – عبر ممارسة اشكال من التعديل او التغيير او التوسيع فيحقق بها نوع من الحوارية داخل الثقافة.

وهو ما يشير اليه سعيد يقطين في تناوله للسرد العربي – اننا نضع المفاهيم كمقابل للتجليات وهي وليدة الوعي الضاهرة وامتلاك الاقدرة على فهمها وتفسيرها ––– تتصل بتسمية الاشياء ووصفها ينضم علاقاتها بغيرها ويحدد موقعها منها — اما التجليات هي الصور الاولى التي تتحقق بها الاشياء وتتحول من ثمة الى ضواهر قارة وثابتة ولها وجودها الخاص واستقلالها[14].

وللمفهوم سياق يتداول فيه ودواع **- يتولد المفهوم الجديد** – بناء على:

أ- مقتضيات استجابات لدوافع جديدة تستدعيه وتتطلبه

ب- انه ياتي ليعوض او يتجاوز او يجدد او ليحل محل مفاهيم قديمة واستعمالات متنوعة

ج– ان المفهوم الجديد وهو ياتي ليحل محل استعمالات متعددة يتخذ بعد المفهوم الجامع الذي يستوعب غيره من المفاهيم ويكسبها دلالات جديدة تتهيا في ضوء السياق الذي تولد فيه المفهوم الجديد[15].

ما يلفت الانتباه في كلا الاقتباسين تناولهما تفاعل المصطلح والمفهوم والتجلي او ما سمي بالمفهوم الجامع الذي د=يستوعب غيره من المفاهيم ويكسبها دلالات جديدة تتهيا لها في ضوء السياق الذي يولد فيه المفهوم – **يستوعب اشكالا متعددة من الممارسات والتجليات النصية** – على اعتباران التسميات السابقة كانت محدودة وضيقة عن الشمول او كانت تحكمها رؤيات خاصة وهذا ما جعلها غير دقيقة عكس المفهوم الجامع انه يريد الضاهرة في كليتها ويسعى الى الاحاطة بمختلف حيثياتها وملابساتها ويغدو تبعا لذلك قادرا على جعلنا وفي اطار توضيفه التوضيف المناسب بفهم الضاهرة بصورة احسن واوضح[16] من بين صور البلاغة الجديدة، تلك العلاقة التي تجمع القصد بالخطاب، وهو عمل استراتيجي، ينظر إلى كيفية تحقيق الهدف، عبر آليات استدلالية مقصودة وموجهة يقول محمد مفتاح عن القصد وتداوله " إن كل فعل، وراءه قصد يدفع إلى وجوده، والى تعليل ذلك الوجود، ولكن المعجم\السيميائي\، اعتبر أن هذا المفهوم تبسيطي، لأنه يفترض أن كل فعل صادر عن شعور وعي، في حين أن هناك أفعالا، تنبثق من غير وعي، وتأسيسا على هذا، اثر مفهوم المقصدية على القصد ،باعتبار أصلها الظاهراتي الذي يجمع القصد والغاية في كل مراحل الفعل، التي هي التوقع والتحقق والتنجز، بيد أن الفعل لا يتم إلا بكفاية جهة. إن الفعل \أو العمل\ المتوقع، يعبر عنه بفعل الجهة وجب. وأراد. والفعل المتحقق يعبر عنه، بفعل الجهة استطاع. وعلم. والفعل المنجز، يعبر عنه بفعل الجهة فعل.عمل[17].

ومن هنا، تعتبر استدلالات التوقع والتحقق والتنجز، مآلات مولدة ومحولة، – بالمفهوم التوليدي – للخطاب، وانجازه من حال القوة إلى حال الفعل، ويستخدم طه عبد الرحمن ثلاث مستويات دلالية، لتحقق الخطاب من خلال مفاهيم المقصد، وهذه المستويات هي المضمون الدلالي والمضمون الشعوري والمضمون القيمي، في سياق خاص للخطاب هنا، وهو الخطاب الديني[18].

وفي ذات السياق، تتفاعل آليات لمفاهيم أخرى، لتبرير القرار وتشريعه في الخطاب، هذا ما تسهم به التداولية، باعتبارها دراسة هيمنة المقام على العبارة، وهي بالتالي تقترن بتداول حديث في اللغة يدعى بأفعال الكلام، ومن خلاله تتجه التداولية لتحقيق الخطاب عبر القصد، باستدلالات تتضمن ما يلي":

1- دراسة مختلف أنواع أفعال اللغة، التي تنتج لنا فهم الفعل المحقق، وشروط استعماله، مثل الوعد والأمر والاستفهام ...بحيث إن خصائص هذه الأفعال، تخضع في أساسها شروط الاستعمال، وهي شروط تبين إلى أي حد، يكون فعل لغوي ملائما للسياق الذي يظهر فيه .

2- دراسة مختلف الوسائل اللسانية، التي يمتلكها المتكلم من اجل إبلا غ فعل الكلام ،الذي يتحقق بصورة مباشرة \واضحة\، أو بصورة غير مباشرة \ضمنية \، انطلاقا من تأويل فعل التكلم، أي التعرف المناسب من قبل المؤول على قصد المتكلم ،المرتبط بحضور العلامات اللسانية أو عن طريق سياق القول.

3- أن دراسة تسلسل أفعال الكلام، في الخطاب بصفة عامة، ليس مدارها فقط على الشروط الملائمة السياقية لأفعال الكلام، وإنما مدارها، الملائمة التساوقية، أي في علاقتها، أي في علاقتها بأفعال لغوية أخرى في سياقها العام.[19]

وهذا ما تقول به نظرية أفعال الكلام، من خلال مؤسسيها اوستين وسيرل، يقول اوستين "إن فعل التكلم بشيء ما، بالمعنى الواسع لهذا المركب، إنما اسميه، بل امنحه هذا اللقب، وهو انجاز فعل الكلام \\، ومن هذا السياق ،فان دراسة العبارات المتلفظ بها ،هي في الحقيقة ولنفس السبب ،دراسة أفعال الكلام، وان شئت قلت دراسة الوحدات الشاملة، لعناصر التكلم \\ اللغوي.[20] وعملية توجيه هذا الخطاب، هو محك حضور أي خطاب، أي

أن المفهوم وهو يتجسد في إطار فكرة معينة، يتجه أساسا إلى تعيين قصده داخلها، وهو ما يصفه سيرل بدوره بالقصدية "فالقصدية هي سمة العقل، التي توجه بها الحالات العقلية ،أو تتعلق بها حالات عقلية تشير إليها، أو تهدف نحوها في العالم، ومما يميز هذه السمة، أن الشيء لا يحتاج أن يوجد فعليا لكي تمثله حالتنا الشعورية، هكذا يمكن للطفل، أن يعتقد أن سانتا كلوز سيأتي بالهدايا مساء عيد الميلاد، وان كان سانتا كلوز لا يوجد.[21]

وفي هدا الصدد يدكر طه عبد إن العلاقة التي تنتج أحكاما أو أفعالا إما أن تتشكل اعتبارا لتقابلات وعلى أساس تفاعل أو حوار بين خطابين تجمعهما منظومة معرفية واحدة كالخطاب الفقهي والقانوني =فالفتاوى والقواعد القانونية والفقهية تتحول بعد طول الممارسة وإلفها إلى ثقافة[22]

البلاغة والتداولية:

إن التفكير في المعنى هو العثور ثانية على مقاصد المفهوم وعلى قدرته في الاحالة الى ما ليس مفهوما بل اعلانا يندد بالشر واعلانا ينطق بالغفران وباختصار فان التفكير جول المعنى هو على نحو من الانحاء — فك المفهوم–وتفسيخ حوافزه وهو بوساطة ضرب من التحليل القصدي والعثور على سهام المعنى التي تستهدف ... التبليغ نفسه[23] حديث البلاغة والتداولية هو حديث قديم جديد، فمن الذوق إلى التعليل إلى الخطاب، أفق وتدرج تداولي لمفاهيم ومعطيات استدلالية قديمة، تتجلى اليوم في رحاب وأفاق التداولية، كممارسة بين ما هو فني وجمالي، على أن ظهورها كرّس لأراء ترى، في سياق المنهج ان للاستدلال تداولات يراعى فيها الجهة المقصودة بالتمثيل فالذات لا تدرك ذاتها الا عبر وسائط فكذالك الاستدلال يعبر عن ذاته منهجيا في سياق ما هو محكوم فيه --- لا يكون للاستدلالات نفس الغرض فبعضها يرمي الى استنتاج معلومات من معلومات سابقة بعضها الاخر يرمي الى تاكيد ان هناك:

1- تمييزا بين استدلالا ت صحيحة صوريا واخرى غير صحيحة صوريا

2- وتمييزا بين استدلالات تستعمل ضمانة اخرى واخرى ترمي الى تاسيس ضمانة

3-وتمييزا بين استدلالات تؤدي الى نتائج ضرورية واخرى تؤدي الى نتائج محتملة

ولا تتناسب اصناف الاستدلالات لا طردا ولا عكسا بل تتالف فيما بينها بنسب مختلفة تشكل اصنافا متنوعة عديدة[24].

وما الحقيقة إلادلك الوجه الجديد للحجاج "على هذا النحو استعاد المنظرون المعاصرون البعد الحجاجي، الذي ضاع من البلاغة في تاريخ تحولها إلى نظرية في الأسلوب الجميل أو في الوظيفة الأدبية للخطاب وأصبحت البلاغة تعني اليوم، دراسة البعد الحجاجي في لنصوص والخطابات، بعد أن أنجز منذ منتصف القرن العشرين تصحيح الخطأ التاريخي والنظري، الذي تسبّب في تقلصها وانحصارها عن الأصل النظري، الذي قامت عليه قديما[25] أن تدارك الخطأ كان في حقيقة الأمر، تدارك جاء في سياق زمني خاص، حيث عادت البلاغة في حقيقة الأمر لتكرس التداولات الجديدة، وما الحجاج إلا وسيلة لأن ما سيشمل الحجاج هذه المرة أو سيكون بديلا له، هو مصطلح الخطاب. وإذا كان لظهور الحجاج بصور لافتة من سبب، فذلك لأن الظرف التاريخي هو من شكّل هذا الحضور النوعي (القوميات، الإثنيات، ونزعات عبرت عن نفسها بخطابات تمجيدية متعالية: كالنازية والفاشية ...) "تعرف البلاغة الجديدة بأنها نظرية الحجاج، التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية، وتسعى إلى إثارة النفوس، وكسب العقول عبر غرض الحجج،كما تهتم البلاغة الجديدة أيضا، بالشروط التي تسمح للحجاج بأن ينشا في الخطاب، ثم يتطور كما تفحص الآثار الناجمة على ذلك التطور[26].

ولكن تقف مفهومات كثيرة تشترك معطياتها في كيفية التأثير على النفوس، على سبيل المثال الأسلوبية ونظرية أفعال الكلام والتداولية والخطاب، وكل ما له علاقة بالكلام ولكن هناك من يصّر على تعارض مفهوم

الحجاج والمفاهيم الأخرى "فضلا عن ذلك، ينبغي الإشارة إلى تعارض الحديثة، وهي بلاغة أدبية صرف من الأفضل أن تدعى أسلوبية إنها تختزل البلاغة في دراسة الوجوه الأسلوبية، فالبلاغة الجديدة على عكس البلاغة الحديثة، غير معنية بشكل الخطاب، من أجل الزخرف أو القيمة الجمالية، بل من جهة كون ذلك وسيلة للإقناع[27].

الحديث عن البلاغة الجديدة لا يمكن أن ينحصر في مفهوم واحد، بل تتشارك فيه مفهومات كثيرة لتحقيقه، كما كانت البلاغة دوما، فالبلاغة دلالة والمفاهيم استدلال عليها، ويشكل السياق حقلا دلاليا في كل دلك ومنه اضحى التداول سمة بارزة فيه تنتقل المفاهيم من خلاله بين الحقول – فليست – المفاهيم – كائنات مستقلة عن النشاط الذي يتداولها ولذا فان حمولتها تتغير بدون توقف اذ تنتقل من سياق تاريخي الى اخر ويطرا عليها تغير في كل مناسبة تداولية ولا يتم استعمال اللغة كمبادرة ارادية في الفرد يقطع منها ما يشاء من المفردات ويكون ما يشاء من الاحكام ليبني ما يشاء من الاستدلالات لان الفعل اللغوي حلقة في الانخراط في الممارسة المفهومية المسترسلة التي تندرج في سيرورة اسرع[28] ولأن كون الحجاج يقترن بالاستدلال فكذلك المفاهيم الأخرى، فلكل أدواته فالأسلوبية والتداولية فهي مفاهيم تتحقق بالإنجاز والاستعمال لأنها هي من دعت إلى تثوير اللغة بالانجاز أو الكلام أو ما هو معروف بالأفعال الإنجازية، بالإضافة إلى أنها تعالج وتسمح بتعدد الخطاب (واقعي \أسطوري خيالي) وتدرس تداوله وتقنياته المستخدمة، فالاستعارة هي الحجة الوحيدة على صدق الخبر كما يصف البعض.

عودة البلاغة على الواجهة، أو تجدد مفاهيمها على الأقل في الغرب، يجعلنا نتساءل عن حال البلاغة عندنا، يقرب لنا الناقد العربي منذر العياشي المسافة، عندما يقارن تداول هذه البلاغة بنظيرتها اليونانية يقول"لقد سبقت الدراسات اللغوية العربية في مولدها الدرس البلاغي، ولذا كانت محرضا له وشاهدا عليه في الوقت نفسه، وبهذا صار الدرس البلاغي عند القوم جزءا أو فرعا من الدرس اللغوي العام ... ونجد العكس من هذا أن الدرس البلاغي الغربي، كان سابقا في مولده على الدراسات اللغوية، وشاهدا عليها وكان لهذا الأمر أثره في دراسة الخطاب (موضوع البلاغة) وفي دراسة البلاغة[29].

إذا يكفي أن نستدل على أن مسألة التداول، تختلف بين البلاغتين فلكل منطلقاته واستدلالاته، وإن كان يجمعهما المصطلح لغة و اصطلاحا، ويفرقهما تداول المفهوم وتجلياته واستدلالاته، وهي إشارة على أن تفاعلا أكثر من فهم هو من يشكل بلاغة ما. فليست المشاكلة والتباين ولا عمود الشعر ولا النظم ولا الأدبية أو الشعرية.. إلا استدلالات على سياق يحيل على فهم من المفاهيم السابقة أو غيرها، حتى لا يقع التباس ،يقول محمد العمري"المحاولات المتكررة من طرف الشعرية والحجاج للاستيلاء على مركزها وعاصمتها (البلاغة) وقد اتضح كيف أن الخطابة كانت على الدوام نقطة تقاطعهما، حتى التبست كانتاج بالصناعة التي تتناول الخطاب، أي بلغته الواصفة كما التبست البلاغة بالمعرفة أي بالرصيد الثقافي للخطاب[30].

كما أصبح للبلاغة سوق كبرى للاستهلاك المؤسس، على مستوى الإعلام والصورة عموما لمفاهيم تستدل على براءتها (اقتصاد السوق. عولمة.حروب بمسميات مدروسة. الشهرة. العمل الإنساني. أخبار المشاهير. النفط . الاحتباس الحراري. الأنفلونزا...).

المقصدية والتداولية:

من رحم فلسفة اللغة والطرح اللساني خرج طرح دلالي جديد يعتبر الطابع الاستدلالي التفاعلي الجديد للنظرية السياقية ويعتبر أيضا أقصى حالات التفاعل داخل اللغة انها التداولية التي تعرف بانها =...دراسة امكانات العمل المسجلة في اللغة[31] لقد مثلت التداولية استحالة تقصي الموضوعات دون ان يكون لهذا التقصي ابعاد سياقية

تتداول فيه المعاني والمقاصد فلا يمكن للمحلل ان يبادر عملية التحليل دون استحضار السياق الذي يتداول وفقه هذا العمل ولا يمكن ان تغطي جهة مخصوصة دلالة الموضوعات الا ان يكون لحضورها سند تداولي.

يجمع بين المقصدية والتداولية أصعدة دلالية كثيرة فكل منهما له صلة بالسياق وطرق استدلاله على ان الصلة الفعلية بينهما هو ان التداولية هي مجموع الآليات الاستدلالية التي يقف عندها السياق والمقاصد هي المستدل عنها في سياقها اي ان المقاصد تستدل من التداولية الياتها ضمن منظومتها السياقية والمقاصد قلنا انها لا تبحث في الاحكام بقدر ما تبحث في ثمرة الإحكام هذه الثمرة او مفهوم القيمة هو ما يحدد علاقة المقاصد بالدلالة لان دور التداولية هو تخريج الاحكام اوتكييفها لصناعة القيمة دون مراعاة لابعادها ومن هنا يصف البعض التداولية على انها =... دراسة الطرق التي تتجلى بها المقاصد في الخطاب ومن ابرز الخطابات التي تدل على ذلك تلك الخطابات التي تشتمل على الافعال اللغوية سواء اكانت تقف عند المستوى الانجازي ام تتجاوزه الى المستوى التاثيري[32].

شكل ظهور نظرية افعال اللغة صلة جديدة بين المقصدية والتداولية على اساس ان كلا منهما الية لانجاز وتحقيق الدلالة فكون النص اوالرسالة تتضمن مفاتيح لغوية واصطلاحية هذا لا يعني ان الدلالة ستقف عند حدود هذه المواضعة بل سيتجاوزها الاستخدام والانجاز الخاص بالمستخدم فمن ذلك تتولد الدلالة ويتولد معها اليات استدلالية جديدة =فبدون معرفة المقاصد لا يمكن ان يستدل بكلام المتكلم على ما يريد لان المواضعة وان كانت ضرورية لجعل الكلام مفيدا فهي غير كافية اذ لا بد من اعتبار المتكلم اي قصده[33].

يوفر النص لعبة دلالية للمتلقي لا تخرج قواعدها عن اطار اللغة المستعملة وكذا تضمين الكلام شواهد وافكار واقوال فالأثر الانجازي لها هو ما سيحقق توسيع الدلالة من قبل المتلقي لان استحضار هذه الشواهد داخل سياق معين معلوم من قبل المستحضر لها اولا فهو يحقق بها انجازا تداوليا على مستوى الفهم والتجليات وسيتولد عنه مفاهيم وتجليات اخرى مع كل قراءة ان ضهور التداولية كان إيذانا بالخروج عن النمط الاحادي الضيق الذي استاثر الوعي والفكر فكانت بذلك حافزا للنضر الى اشكال التعبير وكذا افعالها ما تؤديه على صعيد التوالد الدلالي الذي يتحقق من داخلها اذ ثبت انه = من الصعب القول بالاكتفاء بكل مستوى من مستويات اللغة عند استعمالها في التواصل او تاويلها والقول بالاستقلال ينطوي على مقدار من التعسف فالبرغم من امكان دراسة كل مستوى دراسة مستقلة من الناحية الاجرائية الا انه يتعذر مثل هذا عند ارادة اجرائها على الخطاب اذ لا يمكن استعمال التراكيب المجردة بمعزل عن الدلالة [34].

هذا ما يحقق فعلا اعتبار التداولية فعلا انجازيا يتحقق داخل السياق ولاشيء غير السياق وانجاز الافعال يتوقف على الاستخدام وبالتالي يصبح = معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها تركيب الخطاب في سياق التلفظ اي ان المعنى كقيمة للملفوظ لا تتحكم فيه اللغة بقدر ما يتحكم فيه مستعملوها[35].

لقد توسم المنشغلون بقضايا التداولية جعلها تحقق الحساسية المطلوبة لتقصي مواطىء اللغة على اعتبار ان مباحث الدلالة على الرغم من تعقبها لها على اكثر من صعيد لم تتمكن من احتواء مدلولاتها في ضوء غياب الجهد المعرفي الذي يشكل احتواء هذه المستويات ولهذا كانت التداولية البداية في هذا المنظور باعادة التاسيس لاشكاليات البحث منسؤال صريح=هو ما معنى عبارة ما اوما دلالتها.. ويمكن ان نميز بوضوح اتجاهين معتصرين لتناول هذه المسالة يسمي\ستراوسن\ احدهما اتجاه منظري المقاصد التواصلية والاخر اتجاه منظري الدلالة الشكلية ...افكار \جرايس\ الممثلة للاتجاه الاول ومن ممثليها \اوستين وفتجنشتاين\ ...ان الاطروحة الاساسية عند المدافعين عن هذا الموقف هو انه من المتعذر تفسير مفهوم المعنى اللغوي تفسيرا مرضيا بدون الاحالة على مقام التواصل[36].

اتاح تفاوت المفاهيم وتداولها ضمن تحقق المقاصد تعددا نوعيا للتفاعلات داخل الخطاب ف =لم يكن في لغة من لغات البشر ولا كان نوع من انواعه واساليبه في اللغة الواحدة بالذي يكفي في الدلالة على مراد اللافظ دلالة لا تحتمل شكا في مقاصده من لفطه اعني الدلالة المعبر عنها بالنص الذي يفيد معنى لا يحتمل غيره ولكن تفاوت دلالة الفاظ اللغات ودلالة انواع كلام اللغة الواحدة تفاوتا في تطرق الاحتمال الى المراد بذلك الكلام فبعض انواع الكلام يتطرقه احتمالا اكثر مما يتطرق الى بعض اخر وبعض المتكلمين اقدر على نصب العلامات في كلامه على مراده منه من بعض اخر[37].

يقف الباحث اثناء تعرضه للتداولية وصلتها بالمقاصد تلك الصلة التي تعتبر التداولية الية تتجلى بها المقاصد وسبق وان تعرضنا للمقصدية باعتبارها ما يمثل دراسة المقاصد بطريق او باخر فكلاهما اشتغل على اللغة وظهر تقارب بينهما اكثر في سبل تحقق المقاصد لقد قامت التداولية من خلال نظرية افعال اللغة لتقدم انجاز الافعال دون اعتبار او احتياط للنتائج المترتبة بينما قامت المقصدية على اساس افعال اللغة وثمرتها وان فكلاهما ينطلق من منطلق واحد وهو السياق لكنهما يختلفان في اليات التوظيف- الاسباب والنتائج-

لقد نظر البعض إلى أن قصور النظريات السابقة في تحقيق المستوى المطلوب دلاليا مرده إلى محدودية الأفق رغم أن النظرية المضادة للمقصدية تذهب إلى الخصائص اللغوية المشتركة بين فئة من الناس هي التي تحدد المعنى اذ من خلال معرفتنا المعجمية والتركيبية والدلالية يتوصل إلى ضبط معنى النص فالخصائص اللغوية تؤدي إلى الفهم والتأويل في استقلال تام واستغناء مطلق على البنيات الخارجية لأنه مستمدة من المواضعات العمومية للاستعمال ولكن أصحاب نظرية المقاصد التي يمكن أن توصف بالتركيبية يعتمدون على المادة اللغوية في الفهم والتأويل ومع ذلك يرون أنها غير كافية إذ لا بد من معرفة ما لمعتقدات المتلفظ ومواقفه ومعتقداته وأرائه وهكذا دواليك بل إن هذه الحالات هي التي تكون وراء استعماله للغة بتداعياتها وإيحاءاتها التسليم بمقاصد المؤلف وراء كل متلفظ كلامي وارد ولا مدفع له واستغلال المكونات اللغوية أمر لا مناص منه[38].

إن دينامية المقصدية وفضول التداول هو ما سيمنح قيام سقف دلالي فني بامتياز يتفاعل فيه المبنى والمعنى لا يكتفي بما يقدمه الأثر من معنى لان ثمن الوضوح هو ضياع العمق ولان ثمن التأويل اللامتناهي هو ضياع اللغة والمفاهيم = لان ثمة اختلاف بين ما هو مفترض مسبقا-من الوجهة الدلالية — من قبل الموسوعة وما هو مفترض مسبقا من الوجهة التداولية في مسار تأويل ما[39].

ولهذا فان المقصدية هي=... وسط بين طرفين متضادين التأويلات اللامتناهية التي قد تكون متناقضة والتأويل الحرفي الوحيد إذ هي تنطلق من ثبات المعنى لثبات مقاصد المؤلف ومن تغيرات التأويل الخاضع لالزامات عصر المؤلف والسياق الذي يعيش فيه عبد[40] وكذلك الحال مع التداولية إذ السياق دافعها الأول بل هي من فعالياته ولهذا يصفها البعض على أنها دراسة هيمنة المقام على معنى العبارة فالمعنى تداوليا = ليس معطى أوليا سابقا على التداول من قبل المستعملين السابقين لكن تلك المعاني لا تلبث أن تتغير متى القي بها متداول من جديد فعلامات النسق اللغوي يمكن أن تحتمل تأويلات متعددة حسب الانشغال الآني وجسي النية الموجهة للتواصل[41].

إن المقصدية والتداولية الياتان تفاعليتان تتوازن من خلالهما مباحث الدلالة هذا لا يعني ان مبدأ الوفرة والتنوع الدلالي يعهد بالمحلل إلى توزيع هذه الذخيرة توزيعا حرا=فان وفرة الكلام بخصوص كل شيء ولا شيء لا تضمن بأننا سنجعل الفهم [42] يقوم على مقاصد معينة لقد استفادت التداولية من المكتشفات المعرفية وأفادت بدورها هذه المعارف اذ تعتبر العلاقة التي تجمع بينها وبين علم النفس المعرفي وعلم الاجتماع من العلاقات التي اثمرت ايجابا على صعيد التحصيل الدلالي وكان على المعارف ان تشق هذا الطريق الذي يصفه بول ريكور-

متحدثا عن الفلسفة وهذه الاصول او الحدود في حال الاطراد الذي ستنتهي اليه موضوعية او مواضعة هذه المعارف دون ان تكون هذه الحدود قيودا في طريق الدلالة والبحث اذ سيكفل ذلك تماسكا فعالا للدلالة ازاء المتغيرات = فالحدود ليست على الاطلاق حدودا ثابتة انها متجركة ويمكن تجاوزها الى ما شئنا ثم انها ليست حجودا بالمعنى الدقيق وذلك على هيئة باب مغلق وقد كتب فوقه حتى هنا ولكن ليس ابعد من هنا فالحدود كما علمنا اياها ليست حدود خارجية ولكنها وظيفة للصحة الدتخلية للنظرية=

المقصدية والحجاج:

يعتبر الحجاج من الاسهامات الاستدلالية الهامة التي وصل اليها الفكر الانساني وهو الى جانب المقصدية والتداولية يعبر عن منحى استدلالي خاص في مقاربة الموضوعات ويعد اول ابواب الدلالة اذ ان القضايا في حال الانجاز تكون معباة بمقدماته وعلى قطعية احكامه وبه اصبحت البلاغة جارية على التبين والافهام في سائر الامم وببزوغ التداولية اصبح للحجاج علاقة وثيقة بينها وبالمقصدية وذلك ان خلو التداولية من ضمانات القيمة\ الاخبارية \ واتهامها بالسلوكية خاصة بتوظيفها للحجاج دفع بالمقصدية الى تدارك هذا الخلل كما هو معلوم بعد ان تعدى الامر كذلك مع افعال اللغة وهو الدافع للعودة القوية التي سيعرفها السياق ولقد عبر البعض عن هذا الزخم الدلالي بالبلاغة الجديدة ولقدعرفها البعض في ضوء الحجاج كونهما يتصلان تاريخيا = تعرف البلاغة الجديدة بانها نظرية الحجاج التي تهدف الى دراسة التقنيات الخطابية وتسعى الى اثارة النفوس وكسب العقول عبر عرض الحجج كما تهتم البلا غة الجديدة ايضا بالشروط التي تسمح للحجاج بان ينشا في الخطاب ثم يتطور كما تفحص الاثار الناجمة عن ذلك التطور[43] .

ارتباط الحجاج بالخطاب وتهيئة فعاليته التواصلية يستدعي توافق الياته والسياق ويستدعي ايضا مراعاة الكفاية الخطابية انطلاقا من تعدده ولهذا الدور اهمية لادراك سيرورة الحجاج وبهذا الخصوص ينقسم الحجاج عند اهل الاختصاص إلى: =الحجاج العادي طريقة عرض الحجج وتقديمها ويستهدف التاثير في السامع فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعالا وهذا معيار اول لتحقق السمة الحجاجية غير انه ليس معيارا كافيا اذ لا يجب ان تهمل طبيعة السامع \او المتقبل\ المستهدف.

الحجاج بالمعنى الفني فيدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية والخاصية الاساسية للعلاقة الحجاجية ان تكون درجية اوقابلية للقياس بالدرجات اي ان تكون واصلة بين سلالم[44].

لقد اعتبر الحجاج الفني من حيث الاهمية الاكثر فاعلية اذ يمثل التراكم الفعلي الذي اصبح عليه الحجاج من خلال اليات التحليل ونمو الملكات الادراكية وغناها مكن من توسع هذه الملكة بالاحاطة بكل مايتعلق من الفكرة او الخبر المعني بالحجاج ولان التداولية تعرف على انها علم استعمال المقام فان الحجاج هو ما يحقق الاستعمال وتوافق المقام والفكرة يشيرصابر الحباشة ان الحجاج الفني يعتمد كليا على الذخيرة اللغوية والدلالية التي تتفاعل ومتطلبات الفكرة لقد اصبح الامرحقيقيا — حسبه – مع ابحاث اوستين وسيرل في كتابيهما —كيف نصنع اشياء بالكلمات —و– الاعمال اللغوية — والابحاث التي مهدت لقضايا اللغة والخطاب واللفظ والتلفظ خصوصا في سياق التداول ولهذا فهو يرى ان الحجاج لن يكون فعالية تحليلية دون توافق الضربين الاخباري والحجاجي = والحال اننا على غرار \ديكرو نرفض هذا التقابل بل اكثر من ذلك فان نظرية الحجاج والسلالم الحجاجية \الحجاج الفني\ تهتم تحديدا بتعزيز ذلك الرفض وذلك ببيان ان معنى الملفوظ حتى عندما نعطي لكلمة معنى مفهومها الاضيق المستمد من النحو لا يمكن ان يوصف دون احالة على بعض مقاصد التلفظ وحسي هذه

النظرية من المستحيل عزل اي جزء من المعنى لا تكون الوظيفة التلفظية قد وسمته ان القول مسجل في المقول على حد عبارة ديكرو [45].

ولكي يوضح الامر ينطلق من نظرية افعال اللغة يقول ايضا=والحال ان الموضوع المركزي في النظرية الحجاجية هو ان معنى الملفوظ يحتوي على استمراره المتوقع فمن الجوهري بالنسبة اليه استدعاء هذه المثالية اوتلك وادعاء توجيه الخطاب اتللاحق نحو هذه الوجهة او تلك فان كان الملفوظ حجاجيا فليس فقط لانه يقولشبئا عن العالم ولكن لاننا نعتبره في حد ذاته اي انه ليس مجرد اداة موضوعية تحمل محتوى يربط بين الذات والعالم بل الملفوظ ذاته يسهم في انشاء العالم وتغييره[46].

لا شك ان اي طرح غناه في ادواته والياته التي تتفاعل ايجابا وطبيعة الافكار ولان الحجاج كما التداولية تحكمهما موضوعية الاداة الا ان ذلك غالبا ما كان على حساب الموضوع او الفكرة او الخبر على صعيد المفاهيم لان الحجاج والتداولية يقومان على استدلالات منطقية لاتتوافق غالبا مع كل الخطابات بصفة عامة ولان الاعتبار كان دائما.

الهوامش

1- ينظر طه عبد الرحمن تجديد المنهج في تقويم التراث المركز الثقافي العربي الدار البيضاء2007 ط ص 3.
2- ينظر المرجع نفسه بداية من ص 237 الباب الثالث.
3- ينظر لسان العرب مادة (ح.ج).
4- جاك منشاني سيمياء المرئي ص18 نقلا عن احمد يوسف سيميائيات التواصل وفعالية الحوار ص 112.
5- محمد بن علي التهانوي كشاف اصطلاحات الفنون ص188 نقلا عن علي الإدريسي في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134 ط1 2006 ص 81 -82.
6- ينظر عبد السلام عشير عندما نتواصل نغير إفريقيا الشرق المغرب 2006 ص 113.
7- ينظر محمد مشبال عن تحولات البلاغة مجلة بلاغات ع1 2009 المغرب ص 11.
8- ينظر المرجع نفسه ص ن.
9- عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة —في علم البيان– تح. محمد الاسكندري د.م. مسعوددار الكتاب العربي ط2 1998 ص09 .
10- المرجع نفسه ص 10 11.
11- مصطفى الصاوي الجويني منهج الزمخشري في تفسير القران وبيان إعجازه دار المعارف مصر ط2 1968 ص 216
12- ينظر المرجع نفسه ص 270 وما بعده.
13- المرجع نفسه ص 10–11 .
14- محمد مشبال تحولات البلاغة ص 4.
15- ابن خلدون المقدمة ص 603.
16- محمد مفتاح: حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، ع16.
17- محمد الدغمومي المفاهيم النقدية منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط سلسلة نداوات ومناضرات رقم 87 المفاهيم تكونها وسيرورتها جامعة محمد الخامس المملكة المغربية ص 106.
18- ينظر: طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط3 2007 ص 98.
19- المرجع نفسه ص 65.

20- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير –مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج– افريقيا الشرق، المغرب 2006 ص 99.
21- جون لانكشو اوستين: نظرية أفعال الكلام العامة – كيف ننجز الأشياء بالكلام – تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2 ص 2008.
22- طه جابر العلواني المرجع نفسه ص 104.
23- جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، ط1 2006 ص 102.
24- بول ريكور صراع التأويلات ص 318.
25- صابر الحباشة التداولية والحجاج صفحات للدراسات والنشر دمشق ط1 2008 ص 15.
26- بناصر البعزاتي الاستدلال والبناء ص 86.
27- رجع نفسه ص 16.
28- بناصر البعزاتي الاستدلال والبناء دار الامان المركز الثقا في العربي ط1 1999 ص.
29- نذر العياشي مقالات في الأسلوبية منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق 1990ص 179- 180.
30- القاموس ص.
31- محمد العمري البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول إفريقيا الشرق المغرب 1005 ص 80.
32- عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ص 198.
33- المرجع نفسه ص ن.
34- المرجع نفسه ص ن.
35- عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ص 208.
36- محمد مفتاح مجهول البيان ص 110 111 نقلا عن عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ص 212.
37- امبرتو ايكو القارئ في الحكاية ص 228.
38- عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ص 216.
39- بول ريكور صراع التأويلات ص 177.
40- بول ريكور صراع التأويلات ص 514.
41- المرجع نفسه ص 218.
42- المرجع نفسه ص 255.
43- صابر الحباشة التداولية والحجاج مدخل ونصوص ص12 .
44- المرجع نفسه ص 21.
45- المرجع نفسه ص 26.
46- المرجع نفسه ص 28.